

سورة المنافقين

هي مدنية وآياتها إحدى عشرة نزلت بعد الحج .

ووجه اتصالها بما قبلها - أنه ذكر في الأولى حال المؤمنين الذين بعث إليهم النبي الأُمِّي يتلو عليهم كتابه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وأمرهم بالصلاة وترك البيع حين أدائها ، وفي هذه ذكر أضدادهم وهم المنافقون الذين يشهدون كذبا بأن محمدا رسول الله ويحلفون الأيمان الحُرْجَة على ذلك ، ومن ثم كان النبي يقرأ في صلاة الجمعة في الركعة الأولى بسورة الجمعة ، فيحرض بها المؤمنين على العبادة ، وفي الركعة الثانية بسورة المنافقين فيقرع بها المنافقين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَعْجَبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّكُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قَاتِلْهُمْ اللَّهُ ، أَلَيْسَ يُؤْفَكُونَ (٤) .

شرح المفردات

المنافق : من يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، جُنَّةً : أي وقاية وسقرا لدعاتهم وأموالهم ، آمنوا : أي بالسننهم ، كفروا : أي بقلوبهم ، طبع : أي ختم عليها كما يحتم

بالباطع على ما يراد حفظه حتى لا يؤخذ منه شيء ، لا يفقهون : أى لا يعلمون ، تعجبك
 أجسامهم : أى لصباحتها وتناسب أعضائها ، تسمع لقلوبهم : أى لفصاحتهم وحسن
 حديثهم ، خشب : واحدها خشب ؛ وهى الخشبة التى نخر جوفها ، والصيحة : الصوت ،
 فأتاهم الله : أى لعنهم وطردهم من رحمته ، يؤفكون : أى يصرفون عما هم عليه .

المعنى الجملى

وصف الله تعالى المنافقين بأوصاف هى منتهى الشناعة والقيح :

- (١) أنهم كذابون يقولون غير ما يعتقدون .
- (٢) أنهم لا يبالون بالحلف بالله كذبا ، سترا لنفاقهم ، وحقناً لدمائهم .
- (٣) أنهم جبناء ، فهم على ضخامة أجسامهم ، وفصاحة ألسنتهم ، يظنون أن كل مناد ينادى إنما يقصدهم للإيقاع بهم .

الإيضاح

(إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله) أى إذا حضر مجلسك
 المنافقون كمد الله بن أبى وصحبه قالوا نشهد شهادة لانك فى صدقها ، إنك رسول
 من عند الله حقا ، أوحى إليك وحيه ، وأنزل عليك كتابه ، رحمة منه بعباده .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها ، تحقيقا لرسالته فقال :

(والله يعلم إنك لرسوله) أى والله يعلم إنك لرسوله إلى الناس كافة بشيرا
 ونذيرا ، لتنقذهم من الضلال إلى الهدى .

ثم بين كذبهم فى مقالهم الذى حدثوا به فقال :

(والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) فيما أخبروا به ، لأنهم لا يعتقدون صدق
 ما يقولون ولا تواطىء قلوبهم فى هذه الشهادة .

ثم ذكر أنهم يحتالون على تصديق الناس لهم بكل يمين مُحَرِّجة فقال :
 (اتخذوا أيمانهم جنة) أى جعلوا أيمانهم الكاذبة وقاية وسترا لحقن دمائهم
 وحفظ أموالهم ، فيحلفون بالله إنهم لمنكم ، ويقولون : نشهد إنك لرسول الله ،
 حتى لا تجرى عليهم أحكام الكفار من القتل والأسر وأخذ الأموال غنيفة .
 قال قتادة : كلما ظهر عليهم ما يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين ، عصمة
 لدمائهم وأموالهم .

وفى هذا تعداد لقبأخ أفعالهم ، وأن من عادتهم أن يستنجئوا بالإيمان الكاذبة ،
 كما استجئوا بالشهادة الكاذبة .

ثم حكى عنهم جريمة أخرى وهى إضلال الناس وضدم عن الإسلام فقال :
 (فصدوا عن سبيل الله) أى فمنعوا الناس عن الدخول فى الإسلام ، وعن
 الإنفاق كما حكى عنهم سبحانه بعد .

وقصارى ذلك — أنهم أجزموا جرّمين :

(١) أعدوا الأيمان الكاذبة وهيشوها لوقت الحاجة ، ليحلفوا بها ويتمخلصوا
 من المؤاخذة .

(٢) أنهم يمنعون الناس عن الدخول فى الإسلام وينفرونهم منه متى استطاعوا
 إلى ذلك سبيلا .

ثم بين قبيح مغتبة ما يعملون ، ووبال ما يصنعون فقال :

(إنهم ساء ما كانوا يعملون) أى قبيح فعلهم إذ آثروا الكفر على الإيمان ،
 وأظهروا خلاف ما أضمرُوا ، وسيلقون نكالا ووبالا فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فسيفضحهم الله على رءوس الأَشهاد ، ويظهر نفاقهم للمؤمنين
 بنحو قوله : « وَلَا تَصَلُّ عَلَى أَجْدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ
 كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » .

وأما في الآخرة فحسبهم جهنم وبئس المهاد .

ثم ذكر ما جرأهم على الكذب والاستخفاف بالإيمان المحرجة فقال :

(ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) أى ذلك الذى فعلوه لسوء سريرتهم ، وقبح طويتهم ، فاستهانوا بما يأتون وما يذرون ، ولم يكن همهم إلا المحافظة على دمائهم وأموالهم ، ومن ثم أظهروا للناس إيماناً وأبطنوا كفراً ، وقد خُتم على قلوبهم فلا تهتدى إلى حق ، ولا يصل إليها خير ، ومن جرأ ذلك عموا عما نصب من الأدلة على صدق الرسول ، وصمت الأذان عن سماع ما يوجب الإيمان ، فهم صم بكم عمى فهم لا يعقلون .

ثم ذكر ما لهم من جمال في الصورة واعتدال في القوام فقال :

(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم) أى لاستواء خلقهم ، وجمال صورهم .

كما وصفهم بالفصاحة وذراية اللسان فقال :

(وإن يقولوا تسمع لقولهم) لخلاوة منطقتهم وحسن توقيح حديثهم فإذا سمعهم

سامع أحب أن يُصغى إليهم ، وأن يطول حديثهم جهْد الاستطاعة .

ثم وصفهم بأن أفئدتهم هواء لاعتقول لهم ولا أحلام فقال :

(كأنهم خشب مسندة) أى هم أشباح بلا أرواح ، لهم جمال في المنظر ، وقبح

في المخبر ، فسدت بواطنهم ، وحسنت ظواهرهم ، فكانت كالخشب الجوفاء التى

نخرها السوس ، فهى مع حسنها لا ينتفع فيها بعمل ، ولا يستفاد منها خير ،

ولله در أبى نواس :

لا تخذعنك الحى ولا الشور

ترامُ كالسراب منتشرا

فى شجر السرو منهم مثل

تسعُ أعشارٍ من ترى بقر

ليس فيه اطالب مطر

له رؤاؤه وما له ثمر

ثم وصفهم بالجبن والذلة فقال :

(يحسبون كل صيحة عليهم) أى كلما نادى مناد فى العسكر ، أو انفلتت دابة أو نُشِدَّت ضالة - ظنوا أن العدو قد نجَّاهم ، وأن أمرهم قد افتضح ، وأنهم هالكون لاحالة ، ولقد قالوا : يكاد المريب يقول خذونى ، ويكاد السارق يقول إذا رأى القيد : ضعه فى يدى ، لما أتى من الرعب فى قلوبهم ، فهم يخافون أن تهتك أسرارهم ، وتكشف أسرارهم ، ويتوقعون الإيقاع بهم ساعة فساعة .

ونحو الآية قوله تعالى : « أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ، تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا زَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ » وقد نظر المتنبي إلى الآية فى قوله :
وضاقت الأرض حتى ظن هاربهم إذا رأى غير شىء ظنه رجلا
(هم العدو) الذى بلغ الغاية فى العداوة .

(فاحذرهم) ولا تأمنهم على سر ، ولا تلتفت إلى ظاهرهم ، فقلوبهم متحرقة حسدا و بغضا ، وأعدى الأعداء العدو المداجى الذى يكاشرك (يتسم لك) وتحت ضلوعه الداء الدوى ، والشر المستطير .

ثم زاد سبحانه فى ذمهم وتوبيخهم ، وعجَّب من حالهم فقال :
(قاتلهم الله) أى لعنهم الله وطردهم من رحمته ، فما أقطع حالهم ، وما أشدهم غفلة عن مآلهم .

وهذا تعليم منه لعباده المؤمنين أن يلعنوهم ، فكأنه قال : قولوا قاتلهم الله .
(أتى يؤفكون) أى كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل ، وقد كان لهم مدِّ كرفيا حولهم ، وفيما أمامهم من صدق الداعى بما أتى به من البينات الدالة على أنه مرسل من ربه .

وإن تعجب من شىء فاعجب من جهالتهم وظنهم الفاسد أنهم على الحق ، فما أعظمها محنة ، وأعجب بها نقمة ، جازاهم الله بها على سوء أعمالهم ، وقبح فعالمهم .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ
 وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَّالَةً عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ
 أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى
 يَنْفَضُوا ، وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧)
 يَقُولُونَ لَنْ نَرْجِعَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ ، وَاللَّهُ الْعِزَّةُ
 وَالرَّسُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) .

شرح المفردات

لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ : أى حولوها استهزاء ، يصدون : أى يعرضون عن القائل ،
 الْفَاسِقِينَ : أى الخارجين من طاعة الله وطاعة الرسول ، المنهكين فى أنواع الشرور
 والآثام ، حتى ينفضوا : أى حتى يتفرقوا ، خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ : أى خزائن
 الأرزاق فيهما ، لَا يَفْقَهُونَ : أى لا يعلمون علماً صادراً عن إدراك جلال الله وقدرته ،
 وَالْعِزَّةُ : أى المنافقون ، وَالْأَذَلُّ : أى أذلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه ،
 الْعِزَّةُ : الغلبة والنصر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر كذب المنافقين فى قولهم للرسول صلى الله عليه وسلم : نشهد أنك
 رسول الله ، وبين شنيع أفعالهم ، بترويحها بالآيمان الفاجرة ، ثم أعقبه بذكر جبنهم
 وصدفهم ، وأنهم أجسام البقال ، وأحلام العصفير ، ثم أوردته ببيان أنهم أعداء الله
 حقاً ؛ أعقب هذا بذكر ماصدر منهم مما يثبت كذبهم ونفاقهم ، بما لا يدع شبهة لمن
 يلتمس لهم المعاذير ، ويبرئهم من النفاق ؛ فمن ذلك :

(١) أنهم إذا طلب منهم أن يتقدموا إلى الرسول ليستغفروا لهم على ما فرط منهم من الذنوب، أما لو أروا وسهم وأعرضوا استكباراً وأنفة أن يفعلوا.

(٢) أنهم قالوا: لئن رجعنا من وقعة بني المصطلق (قبيلة من اليهود) إلى المدينة لنخرجن الأذلاء محمداً وصحبه منها.

ثم نعى عليهم ما قالوا بأنهم قوم لاحلوم لهم، ولا هم يفتقرون جليل قدرة الله وبديع صنعه.

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين غزا بني المصطلق علا المرسيع (ماء لهم) وهزمهم وقتل وأسر — ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد الغفاري، وكان أجيراً لعمر بن الخطاب، وسنان الجهني، وكان حليف عبد الله بن أبي، واقتتلا فصرخ جهجاه وقال: ياللهاجرين، وصرخ سنان وقال: يالأنصار، فأعان جهجاه رجل من المهاجرين ولطم سنانا؛ فقال عبد الله بن أبي للمهاجرين: ما صحبنا محمداً إلا لنطعم، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل: ممن كلبك يا كلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرض منها الأذل، ثم قال لقومه: لو أمسكتن عن هذا وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: دعني يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق قال: إذا ترعدت أنف كثيرة بيثرب (يريد صلى الله عليه وسلم أنه يهيج الشر) قال: فإن كرهت أن يقتله مهاجر فأسر به أنصاريا، قال: فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ ثم قال لعبد الله: أنت صاحب هذا الكلام الذي بلغني، قال: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك، وإن زيذا (يريد زيد بن أرقم الذي بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم) لكاذب، فنزلت هذه الآيات، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد: يا غلام إن الله صدقك وكذب المنافقين، فلما بان كذب عبد الله قيل له: قد نزلت فيك آي شداد، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر

لك ، فلوّى رأسه وقال : أمرتوني أن أومن فأمنت ، وأمرتوني أن أزكى فزكيت ، وما بقي إلا أن أسجد لحمد ، ولم يلبث إلا أياماً حتى اشتكى ومات .

الإيضاح

(وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم ورأيتمهم يصدّون وهم مستكبرون) أى وإذا قيل لجماعة المنافقين كعبد الله بن أبى : هلموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب منكم من ربكم غفران ذنوبكم ، صدوا وأعرضوا ، استكباراً وعتوا .

قال الكلبي : لما نزل القرآن بصفة المنافقين مشى إليهم عشائرهم من المؤمنين وقالوا لهم : ويلكم افتضحتم بالنفاق ، وأهلكتم أنفسكم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوبوا إليه من النفاق ، وأسألوه أن يغفر لكم ، فأبوا ذلك وزهدوا فى الاستغفار فنزلت الآية :

وقال ابن عباس : لما رجع عبد الله بن أبى من أخذ بكثير من الناس مقتته المسلمون وعنفوه وأسمعوه ما يكره ؛ فقال له بنو أبيه : لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يستغفر لك ويرضى عنك ، قال : لا أذهب إليه ولا أريد أن يستغفر لى ، وجعل يلوّى رأسه فنزلت :

ثم أيأسهم من جدوى الاستغفار لهم فقال :

(سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، إن يغفر الله لهم) أى الاستغفار لهم وعدمه سياتى لا يجديانهم نفعاً ، لأن الله قد كتب عليهم الشقاء بما كسبت أيديهم ، وبما اجترحت من الفسوق والآثام ، وبما ران على قلوبهم من الجحود والظفيمان ؛ ثم علل ذلك بقوله :

(إن الله لا يهتدى القوم الفاسقين) أى إن الله لا يهتدى من أحاطت به خطيئته فلم تجد الهداية إلى قلبه سبيلاً تسلكه ، ولا المواعظ والنصائح متسماً فى فؤاده ،

فَأَنَّى لِلْقَلْبِ أَنْ يَهْتَدِيَ ، وَلِلْعَقْلِ أَنْ يَرْعَى ، وَمَاذَا تَقِيدُ الْآيَاتِ وَالنَّذْرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يَمَعْتَلُونَ ؟
ثم ذكر هتة أخرى لهم فقال :

(هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) أى هم الذين يقولون للأَنْصَارِ : لا تطعموا محمداً وأصحابه حتى تصيبهم مجاعة ، فيتركوا نبيهم حين يعرضهم الجوع بنابه .

ثم رد عليهم وخطأهم فيما يقولون فقال :
(ولله خزائن السموات والأرض) أى والله جميع ما فى السموات والأرض من شئ ، وبيده مفاتيح أرزاق العباد ، لا يقدر أحد أن يعطى أحدا شيئاً إلا بمشيئته .
(واسكن المنافقين لا يفقهون) ذلك ، لجهلهم بسنن الله فى خلقه ، وأن الله قد كفل الأرزاق لعباده فى أى مكان كانوا متى عملوا وجدوا فى الحصول عليها .

ثم ذكر هتة ثالثة لهم وهى أعظماها فقال :
(يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجننا الأعرز منها الأذل) أى يقول عبد الله ابن أبى ومن يلوذ به من صحبه : لئن عدنا إلى المدينة لنخرجنكم منها أيها المؤمنون فإننا الأقوياء الأشداء الأعرز ، وأتم الضعفاء الأذلاء .
ثم رد عليهم مقالهم فقال :

(ولله العزة ورسوله وللمؤمنين) أى والله الغلبة والقوة ، ولن أعزه الله من الرسول والمؤمنين .

روى « أن عبد الله بن عبد الله بن أبى ، وكان مؤمناً مخلصاً ، سل سيفه على أبيه عند ما أشرفوا على المدينة وقال : لله على ألا أعمدته حتى تقول : محمد الأعرز وأنا الأذل ، فلم يبرح حتى قال ذلك » .

وروى « أنه وقف واستل سيفه وجعل الناس يبرون عليه حتى جاء أبوه فقال : ورائك ، قال مالك وملك ؟ قال والله : لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله

صلى الله عليه وسلم فإنه العزيز وأنت الدليل ، فرجع حتى لقي رسول الله ، وكان إنما يسير ساقية (في آخر الجيش) ، فشكا إليه ما صنع ابنه ، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن اخلّ عنه يدخل ففعل .

(ولكن المنافقين لا يعلمون) أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأن العاقبة للمتقين ، وأن الله ينصر من ينصره كما قال « كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ أَنَا وَرُسُلِي » وسننه تعالى لا يتبدل فيها ولا تغيير ، وهو لا يد جعل عباده المؤمنين هم الأعداء كما وعد ، وجعل مخالفه هم الأذلاء .

ولادخل المال والنشب ، ولا للحسب والنسب ، في تلك القوة التي يُمد بها من يشاء ، والنصرة التي يمنحها عباده المخلصين ، وإن الله منجز وعده لنبيه ، كما أنجزه لمن قبله من رسله ، وقد تم لهم الظفر على أعدائهم الضالين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ كَمَا اتَّقَوْا أَوْ لَادِكُمْ وَعَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ، فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) .

شرح المفردات

لاتقوا : أى لاتشفلكم ، وذكر الله : العبادات المذكورة به ، والمال والأولاد يراد بها زخرف الدنيا ، الخاسرون في تجارتهم : إذ ياعوا العظيم بالحقير ، لولا : كلمة تفيد تمنى حصول ما بعدها .

المعنى الجملى

بعد أن حكى مقال المنافقين من أنهم الأعداء ، وأن المؤمنين هم الأذلاء ، اغترارا بما لهم من مال ونسب ، وأن ذلك هو الذى صدّهم عن طاعة الله ، وجعلهم يعرضون عن الإيمان بالله إيماناً حقا ، ويؤدون فرائضه ، ويقومون بما يقربهم من رضوانه ؛ أردف ذلك بنهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم فى ذلك ، بل عليهم أن يلهجوا بذكر الله أثناء الليل وأطراف النهار ، ويؤدوا ما فرض عليهم من العبادات ، ولا يشغلهم عن ذلك زخرف هذه الحياة من مال ونسب وأولاد وجاه ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ؛ ثم أمرهم أن ينفقوا أموالهم فى أعمال البر والخير ولا يؤخروا ذلك حتى يحل الموت فيندموا حيث لا ينفع الندم ، ويتمنوا أن يطيل الله أعمارهم ليموضوا بعض ما فاتهم ، ولكن أتى لهم ذلك ؛ ولكل نفس أجل محدود لاتعديه ، والله خبير بما يعملون ، وهو مجازيهم على أعمالهم ، إن خيرا وإن شرا .

الايضاح

(يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) أى لا يشغلكم تدبير أموالكم ، والعناية بشؤون أولادكم ، عن القيام بحقوق ربكم ، وأداء فرائضه التى طلبها منكم ، واجعلوا للدنيا حظا من اهتمامكم ، وللاخرة مثله ، وهذا ما عناه الحديث : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

وبهذا امتازت الملة الخنيفية السمحة ، فما طالب من المؤمنين أن يكونوا ماديين يتكالبون على جمع حطام الدنيا كما يفعل اليهود ، ولا أن يكونوا روحانيين مجردون أنفسهم من لذات هذه الحياة ، ويتبتلون إلى ربهم كما يفعل المسيحيون ، كما يرشد إلى هذا قوله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ

الرِّزْقِ» وقوله : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا » .

ثم تواعد من يفعل ذلك فقال :

(ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) أى ومن تلهّ بالدنيا وشغلته عن حقوق الله فقد باء بغضب من ربه ، وخسرت تجارته ، إذ باع خالداً باقياً ، واشترى فانياً زائلاً ؛ وكيف يرضى عاقل بمثل هذه التجارة الخاسرة ؟

ومن أهم ما يقرب العبد من ربه ، ويجعله يفوز برضوانه — رحمة البائسين من عباده ، وبذل المال في الوجوه التي فيها سعادة الأمة ، وإعلاء شأن الملة ، وانتشار الدعوة ، ومن ثم قال :

(وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين) أى وأنفقوا بعض ما أعطيناكم من فضلنا من الأموال ، شكراً على النعمة ، ورحمة بالفقراء من عباده ، وادخروا ذلك ليوم العرض والحساب ، فتنجوا ثمار ما عملتم ، ولا تدخروه في صناديقكم ، وتدعوه لوارثكم ، فربما أضاعه فيما لا يكسبكم حداً ولا مدحاً ، بل يكسبكم ذماً وقدحاً . وقد جاء في الخبر : « أطمعوا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » وجاء أيضاً : « يابن آدم ليس لك من مالك إلا ما لبست فألبيت ، أو أكلت فأفريت ، أو تصدقت فأبقيت » .

ولا تنتظروا حتى يحين وقت الاحتضار ، وتروا الموت رأى العين ، ثم تمنون أن لو مدّ الله في الأجل ، وأطال العمر ، لتتداركوا ما فات ، وتحسنوا العمل ، وتساعدوا البائسين وذوى الحاجة ، فهيهات هيهات ، فليس ذا وقت الندم .

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

فأنى للعمر أن يطول ، وللحياة أن تزيد ؟ ولكل نفس أجل لا تعدوه ، وعمر

لا يزيد ولا ينقص ؛ فإذا يفيد التنى ، وماذا ينفع الندم والحسرة ؟ وذلك ما عناه سبحانه بقوله :

(ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) فليكن أن تستعدوا قبل حلول الأجل ،
وتهيئوا الزاد ليوم المعاد « فَأَمَّا مَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وَأَمَّا
مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ . نَارٌ حَامِيَةٌ » .

وفي هذا عبرة لمن اعتبر ، ولم يفرط في أداء الحقوق والواجبات .

ثم حذرهم وأنذرهم بأنه رقيب عليهم في كل ما يأتون وما يذرون فقال :

(والله خبير بما تعملون) فجازيكم على الإحسان إحساناً ، وعلى الإساءة إعراضاً
عنه وسخطاً ، وبعداً عن رضوانه : إنك لا تجنى من الشوك العنب .
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله .

تضمنت هذه السورة شيئين

- (١) وصف المنافقين وبيان سبب خصالهم من الكذب والأيمان الفاجرة والجبن .
- (٢) حث المؤمنين على الطاعة وإنفاق المال قبل انقضاء الأجل .